همزة لئيم

يوم عرف الإنسان الشيطان كان فاتحة خير، يقول العقاد في مقدمة كتابه"إبليس". وهذا يعني أن الإنسان لابد أن يعرف صفات الشيطان وأعماله لينجو من كيده، أو ليتدارك الأمر بالتوبة والإقلاع حين يقع في مصائده عن غفلة أو سهو.

ولعل أكثر صراعاتنا وأزماتنا النفسية يرجع بالأساس إلى الجهل بمداخل الشيطان، وأساليبه في الوسوسة والتحريض على ارتكاب الآثام. نعم نحن نُقرّ بوجوده، ونؤمن بأن له يدا في تدبير الخروج المأساوي لآدم من الجنة، لكننا لا نهتم كثيرا بالتفاصيل، ونعتقد أن الإحاطة بها مضيعة للوقت و الجهد، وهذه في حد ذاتها صورة للؤمه وخبثه!

تأسست في ذهننا تمثلات غير واقعية حول الشيطان، من بينها أنه مخلوق مستقل بذاته، قرر أن يركب المعصية منذ قديم الأزل. لكن الشيطنة في صورتها وحقيقتها موقف من الخالق و الخلق معا، فهي من جهة تمرد على الخالق بعصيانه، ومن جهة أخرى إصرار على تكثير الأتباع حتى تكون الغلبة لحزب السعير.

بهذا المعنى يتلاقى في الشيطنة الإنس والجن؛ بل إن الإنسي قد يكون أبلغ في الضرر و الأذى من الجني لأنه موضع ثقة في غالب الأحيان. ذلك أن الصورة الذهنية التي يتقاسمها عدد كبير من الناس تجعل الإنسان في الغالب ضحية للعمل الشيطاني، وتنفي عنه صدور شيطنة إنسية. بينما نجد القرآن الكريم في تحذيره يضع الاثنين معا في نفس الكفة.

قلنا أن الشيطنة تمرد، ورفض للميثاق الإلهي الذي ينظم حركة الكون والحياة. لقد أبدى شيطان الجن تمرده برفضه السجود لآدم، انطلاقا من قياس خاطئ مفاده أن النار خير من الطين، فكيف يتمرد شيطان الإنس؟

إن تمرده نابع من رفضه الخضوع للقسمة الإلهية، واعتراضه على تفاوت العطاء الإلهي بين مخلوق وآخر. فهو يطمح لأن يجمع العطاء بكل أشكاله في قبضة واحدة، فيكون له الغنى، والسلطة، والقوة، والجمال، وديمومة الحال، والعقل، والعلم، وغيرها من صور الإنعام. وسبب ذلك قياسه الخاطئ الذي يربط السعادة بالامتلاك، في الوقت الذي تؤكد فيه السنن الكونية على الترادف الحي بين السعادة والعطاء.

ويرجع تمرده كذلك إلى رفضه لحقيقة فناء الجنس البشري. وهو يعبر عن هذا الرفض بسعي خلف وهم الخلود وأكاذيبه، أو بإغراق في الشهوات والملذات التي تُنسيه وجوده الفاني، أو بالانتقام من خلال الإفساد في الأرض وتدمير مقومات الحياة.

منذ بدءالخليقة وحتى يومنا هذا، يتولى مندوب الشيطان بعث ثلاث رسائل، تتغير مظاهرها وصورها، لكن يظل محتواها قائما لا يتبدل:

الرسالة الأولى مضمونها أن هذه الحياة لا تستحق أن تُعاش، فهي وهم زائل، وخط زمني يمتد بين الولادة والموت، دون أن يحقق للإنسان سعادة العيش. ومن هذه الرسالة نشأت أفكار وفلسفات تحرض على الزهد، والانقطاع عن الدنيا، إما بالعيش في سلبية مطلقة، أو تعجيل الموت عن طريق الانتحار.

والرسالة الثانية مضمونها أن هذه الحياة يجب أن تُعاش دون مقابل، ودون أن يتحمل الإنسان فيها أية مسؤولية أو دور. ومن هذه الرسالة تولّدت أفكار ونظريات وفلسفات تحرض على الاستمتاع، والتفرغ للشهوات، والاستهلاك غير الواعي لكل العطايا الإلهية. أما الموت فهو نهاية محتومة لا حياة بعدها، مادام كل الذي فوق التراب تراب!

أما الرسالة الثالثة فمضمونها أن الإنسان صورة للإله، وبالتالي فهذا يمنحه الحق ليعيش ألوهيته في الأرض، بدون تبعات أو توجيهات، أو أي تدخل يحدّ من تلك الألوهية. ومن هذه الرسالة انبعثت أفكار وفلسفات تحرض على القوة والعنف، وتعتبر الوجود الإنساني حلبة صراع بين أبنائه، فلا مكان فيه لضعيف، ولا حاجة فيه لإظهار أي شكل من أشكال التعاطف، والتعدد، والعيش المشترك.

إن الجهل بحقيقة الشيطان وصفاته يجعل هذه الرسائل دائمة الحضور في مشهدنا اليومي. وإذا كان شيطان الجن يعتمد لاستمرارها على الوسوسة، فإن شيطان الإنس يزكيها عبر كل أشكال التعبير الإنساني:

فهي حاضرة في العلم ببحوثه واختراعاته..

وهي حاضرة في الفلسفة بطروحاتها ومقولاتها..

وهي حاضرة في الفن بصيحاته وإنتاجاته.

والقلب يُصدّق ذلك أو يُكذّبه. وكلما عرف الإنسان الشيطان فإن حياته تستقيم على صراط النجاة.